آفاق المعرفة

٣٠٩

مي زيادة وصالونها الأدبي

إبراهيم مشارة *

لقد وجدت دعوة الإمام محمد عبده وتلميذه قاسم أمين وغيرهما من المصلحين آذانا صاغية في المجتمع العربي وهو يدب نحو الرقي ويسعى نحو النهضة في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وفحوى تلك الدعوى أن لا رقي ولا نهضة بغير إصلاح وضع المرأة التي هي نصف المجتمع وإصلاح وضعها يعني القضاء على عهد الحريم وإتاحة الفرصة للمرأة بأن تتعلم وتنال كامل حقوقها التي أعطاها إياها الشرع والفلسفة الوضعية الإنسانية، تلك الدعوة المباركة التي صدع بها شعراء العربية الكبار مزكين إياها مباركين مضمونها وعلى رأس الشعراء أمير الشعراء أحمد شوقي:

* باحث من سورية

- العمل الفني: الفنان شادي العيسمي

وإذا النساء نشأن في أمية
رضع الرجال جهالة وخمولا

وحافظ إبراهيم الذي صدع بقصيدته في فضل تربية النساء:

من لي بتربية النساء فإنها
في الشرق علة ذلك الإخفاق؟
الأم مدرسة إذا أعددتها
أعدت شعباً طيب الأعراق

وهكذا دخلت المرأة قاعات الدرس وأسفرت بعضهن إمعاناً في الدفاع عن كرامتهن وتعبيراً عن مساواتهن بالرجل فالمرأة ليست كائناً جنسياً وظيفته إمتاع الرجل وإنجاب الأولاد بل إنساناً حياً فاعلاً خلاقاً، وليست موضوعاً غزلياً يتغنى بالقد المياس والعين النجلاء والخد الأسيل فقط.

وقد أثمرت هذه الدعوة المباركة ثماراً طيبة تجلت في ظهور نساء وقفن نداً للرجل في السياسة والفكر والفن والأدب وكان منهن لبيبة هاشم وملك حفني ناصف وعائشة التيمورية وهدى شعراوي ومي زيادة وصولاً إلى مفيدة عبد الرحمن وعائشة عبد الرحمن ونعمات فؤاد وفدوى طوقان ونازك الملائكة وسهير القلماوي وغيرهن.

ولا ريب أن الآنسة مي زيادة كانت أكثرهن شهرة وشغلاً للرأي العام وإثارة لطبقة المثقفين ورجال السياسة والأدب، فقد جمعت بين جمال الروح والجسد في تناغم عجيب، وألمت بالثقافة العربية والغربية إلماماً مدهشاً. كما أتقنت اللغات الأجنبية وفضلاً عن ذلك كان جمالها الروحي والجسدي مغرياً للأدباء بحبها والتعلق بها وقد اشتهر بحبها مصطفى صادق الرافعي وعباس محمود العقاد وجبران خليل جبران الذي عرفها عن بعد وهو في المهجر الأمريكي واقتصرت العلاقة بينهما على تبادل الرسائل ولا شك أن صالونها الأدبي الذي كان يجتمع فيه كبار مثقفي العصر، زادها شهرة وتقديراً فالصالون الأدبي فكرة غربية محضة اشتهرت بها بعض كاتبات الغرب فضلاً عن كتابه و إنشاؤه وترسيخه في المجتمع العربي الخارج لتوه من عصر الظلمات الصالون الذي أنشأته الآنسة مي زيادة زاد في شهرتها وفي تقدير المجتمع لها،خاصة طبقة المثقفين.

و الآنسة مي زيادة هي ماري بنت إلياس زيادة المعروفة بمي لبنانية الأصل من أهل كسروان، أقام والدها في الناصرة بفلسطين حيث ولدت مي عام ١٨٨٦ م



وتعلمت في إحدى مدارسها ثم بمدرسة عين طورة بلبنان وأقامت بمصر مع والديها حيث كتبت بمجلة «المحروسة» ثم «الزهور» وأحسنت العربية والفرنسية والانجليزية والإيطالية والألمانية.

مات أبوها ثم أمها فشعرت بمرارة الحياة واستسلمت لكآبة اليأس، وقد قررت عدم الزواج على الرغم من تعلق الكثيرين بها وقد خطبوا ودها وذابوا شوقاً وهياماً في حضرتها ولربما صح ما زعمه البعض في أن الآنسة مي أحبت جبران خليل جبران المعروف برومانسيته الجارفة وأفكاره الجريئة وعباراته الرشيقة ونزعة الحرية القارة في حياته وفي فنه وأدبه، ولكنه كان مقيماً بأميركا واقتصرت علاقته بالآنسة مي على الإعجاب والتقدير المتبادل يبعث إليها برسائله من أمريكا وترد عليه برسائلها إليه من مصر وكانت وفاته عام١٩٣١م صدمة نفسية وجرحاً عميقاً في روحها زادها تصميماً على العزوبية وتفضيل العيش وحيدة بلا زواج تسكن إليه ويسكن إليها، و لربما توطدت قناعة مي بعدم الزواج نتيجة لمزاج وفلسفة ذاتية تخرج بها عن المألوف، فإذا كان الزواج والإنجاب وتبعاته قدر المرأة حتى

ليزهدها في الإبداع ويشلها عن الإنتاج الفني والفكري، فقد ضحت به في سبيل إخلاصها لذاتها وفلسفتها الشخصية، حتى تعطي المثل والعبرة في كــون المرأة تمامــاً كالرجل تقدر على العزوبية وتبعاتها، فلن تكون ظل الرجل ولا قاصرة تستكمــل قصورها بالركون إليه والارتماء في أحضانه، وتؤثر الجانب الروحي والإنســاني والعقــلاني فيها علــى الجانب الغريزي والجســدي والجنسي، وفي الرجال من كانــت هــذه فلسفته فميخائيــل نعيمة عميــد أدباء الهجر أثر العزوبية والتنسك في «الشخــروب» وقال جملتــه المشهورة «خلقت لأكــون أخاً للمرأة لا بعــلاً لها» والآنسة مي معروفة بحساسيتها الشديدة كونها امرأة من جهــة، وفنانة شاعرة مــن جهة أخرى، وهذه الحساسية المضاعفة هدت عافيتها الجسدية وتوازنها النفسي خاصة حين تعرضت لأزمات الحياة التي قسمت ظهرها بدءاً بوفاة والديها ووفاة صديقها جبران خليل جبران، وازدادت حالــة المرض سوءاً عليها عام ١٩٣٦ وانتابها الاضطراب العقلي تبل منه قليلاً ثم يعاودها ثم توفيــت في مستشفى المعــادي ودفنت في القاهرة عام١٩٤١م.

وقــد قالت السيــدة هدى شعــراوي في تأبينها «كانت مي المثل الأعلى للفتاة الشرقية المثقفة».

وقال فيها شيخ فلاسفة العرب في العصر الحديث مصطفى عبــد الرازق «أديبة جيل، كتبت في الجرائد والمجــلات، وألقت الكتب والرسائل، وألقت الخطب والمحاضرات، وجاش صدرها بالشعر أحياناً، وكانت نصيرة ممتازة تعقــد للأدباء في دارها مجلســاً أسبوعياً، لا لغو فيــه ولا تأثيم ولكن حديث مفيد وسمر حلــو وحوار تتبادل فيــه الآراء في غير جدل ولا مراء».

وللآنســة مي عدة مؤلفــات منها «باحثة الباديــة» و«بــين المــد والجــذر» و«سوانــح فتاة» و«كلمــات وإشارات» و«ظلمات وأشعة» و«ابتسامــات ودمــوع» ولهــا ديــوان شعــر بالفرنسية بعنوان «أزاهير حلم».

لقد كانت مي زيــادة محبة للعروبة ملمة بالأدب العربي وعلومــه إلماماً أدهش الرواد مــن أدباء مصــر وحبهــا للعربيــة وتعلقها بالعروبة دفعها إلى نحت اسم لها عربي خالص من اسم «مــاري» هو الذي عرفــت به، وإن كان «مية» اسم عربي تردد في شعر النابغة:

يــادار ميـة بـالـعـلـيـاء فـالـسـنـد
أقـوت وطـال عليها سالف الأمد

وكانت مية هي حبيبة الشاعر ذي الرمة، التـــي تغنى بها في شعره، وصالون الآنسة مي كان فتحـــاً جديداً في الثقافة العربية وتنويراً المجتمع وتغييراً من سلوكاته البائدة وأعرافه الرثـة خاصـة وعـرف الحـريم وإيحاءاته برجعية المرأة واستبداد الرجل.

كان مجلســ مي يعقد يــوم الثلاثاء وكان يحضـره عمالقــة الأدب ورواد السياســة ومشاهير العلماء وأعيان البلد كمحمد عبده، ومصطفى عبد الرازق، وأحمد لطفي السيد، وقاســم أمين، وطه حسين، ومصطفى صادق الرافعــي، وخليل مطــران وإسماعيل صبري وعباس محمود العقاد وغيرهم.

وهكــذا اجتمع أعــلام الديــن وأقطاب السياسة ورواد النثر وفرسان الشعر في صالون الآنســة مي، وهذا تقدير للمرأة العربية التي استطاعت جمع الرجال من حولها يتناقشون فيمــا بينهم نقاشاً حــراً في السياسة والأدب والديــن والثقافة العالميــة، وكان جمال مي الروحــي والجسدي وكلامهــا الحلو ونبرتها الهادئة وثقافتها الكبيرة، كان كل ذلك يضفي علــى المجلس بهاء ورقيــاً وإحساســاً راقياً بالجمال في أرقى تجلياته، ولم يكن أحد يغيب عــن المجلســ إلا لظرف قاهــر، حتى غيب الموت صاحبــة الصالون، تارك وهج الذكرى وبريق الماضي وأصالة الفكرة وروعة المغامرة والتحدي والخروج عن الرتابة المملة والمألوف المقرف.

ولصالون مي في شعرنا الحديث حضور، فقد ذكره الشعــراء في أشعارهم والكتاب في مقالاتهــم، وكان الشاعــر إسماعيــل صبري يقول عن صالون مي يوم الثلاثاء:

روحي على بعض دور الحي حائمة
كظامئ الطير تـوافـاً إلى الماء
إن لم أمتـع بمـي نـاظـري غـداً
لا كان صبحك يا يوم الثلاثاء!

أما الشاعر شفيــق المعلوف شقيق شاعر الطيارة فوزي المعلــوف فقد قال عن الآنسة مي:

بـنـت الـحـبـال ربـيـبـة الـهـرم
هـيـهـات يـجـهـل اسـمـهـا حي
لم نـلـق سـحـراً سـال مـن قلم
إلا هـتـفـنـا هـــذه مـــي!

وقــد كان رحيل مــي وانفضاض مجلسها وغياب نبرتهــا الموسيقية وملامحهــا الهادئة الرشيقــة، وكلماتهــا العذبة المليئــة بالأفكار

الخلاقة والمعاني البكـر،كان ذلك حدثاً مؤلما لشاعر القطرين خليل مطـران الذي أقضته الذكرى، وأبكته حسرة الرحيل ومرارة الفراق وغياب اللحظات الجميلة وهو الشاعر المرهف الحس الرقيق الكلمة، الرحب الخيال، الصادق القول فقد قال في رحيل مي:

أقفر البيت أين ناديك يامي
إليه الوفود يختلفونا؟
في مجال السبق آل إليك السبق
في المنشئات والمنشئينا
نعمة ما سخا بها الدهر حتى
آب كالعهد سالبا وضنينا
أيهذا الثرى ظفرت بحسن
كان بالطهر والعفاف مصونا
لهف نفسي عل حجى عبقري
كان ذخرا فصار كنزاً دفينا

وما أوجـع الحزن،وما أشد الغصة،غصة الرحيـل التي فعلت فعلهـا في نفس الشاعر كما يوحي بها البيتان الأخيران.

لقـد كانـت الآنسـة مـي بأدبهـا وبثقافتها،وبجمالها الروحي والجسدي رمزاً للمرأة العربية الطامحة إلى عصر غير عصر الحـريم،وإلى شعـر لا يكتفي منهـا بوصف النهود والأرداف والخدود،بل يشيد بعبقريتها وإنسانيتهـا وعطائهـا وإنتاجهـا العلمـي والأدبي.

ولقد كان صالونها حدثاً فريداً في تاريخ المجتمـع العربـي، وأن كانت لـه سوابق في تراثنـا فالسيدة سكينة بنـت الحسين وهي شاعرة وناقدة كانت تستقبل الشعراء في بيتها وتكلمهم ولكن من وراء حجاب،وحدث مرة أن استمعت إلى راوية جرير ينشدها :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
حين الزيارة فارجعي بسلام

فقالت له قبـح الله صاحبك وقبح شعره أما كان أحلى لو قال:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
حين الزيارة فادخلي بسلام

غير أن مجلس الآنسة مي يختلف عن مجلس السيدة سكينة فقد كانت مي مجتمعة بالرجال مسفـرة كالبدر، ومن حولها أقطاب السياسة وأعلام الأدب وأعيـان البلد تناقشهم وتدلي بآرائها التي بهرت الجميع، وكان يوم الثلاثاء من كل أسبوع عيد الأدباء والمفكرين والعشاق يتأنقون ويتعطرون ويخفون إلى المجلس بهمة ووجد وهيام عجيب وكلهم يريد أن يكون فارس الندوة ورائد المجلـس لعله يحظى بقلب مي وحبها فيجمع بين الثقافة في أرقى تجلياتها والجمال في أكمل صوره. ■■